Journal of the College of Education for Humanities
University of Thi-Qar \ ISSN:2707-5672
مجلة كلية التربيـة للعلـوم الانسـانيـة
جامعة ذي قار / الرقم المعياري 2707-5672
https://doi.org/10.32792/utq/jedh/v15i3

التمثيل الثقافي للهوية العراقية في شعر سعدي يوسف

يسرى ثامر عبيد
مديرية تربية ذي قار/قسم تربية الشطره
thamrysry@gmail.com

الخلاصة

تستكشف هذه الدراسة التمثيل الثقافي للهوية العراقية في شعر سعدي يوسف، أحد أبرز الشعراء العرب المعاصرين. ومن خلال قراءة متأنية لقصائد مختارة، يبحث البحث في كيفية بناء يوسف للهوية العراقية وإعادة تعريفها في خضم التحولات التاريخية والسياسية والاجتماعية. ويبحث البحث في التفاعل بين المنفى والذاكرة والوطن والمقاومة في أعمال يوسف، مسلطًا الضوء على كيف أصبح صوته الشعري وعاءً للوعي الوطني والتأمل الشخصي. وبالاستناد إلى نظريات ما بعد الاستعمار والهوية الثقافية، يكشف التحليل كيف يمزج يوسف الأشكال العربية الكلاسيكية مع التقنيات الحداثية لرسم صورة متعددة الأوجه للعراق - صورة تتأرجح بين الحنين والنقد، والتجذر والنزوح. وفي نهاية المطاف، تؤكد الدراسة على دور الشاعر في الحفاظ على الذاكرة الثقافية والدعوة إلى رؤية إنسانية شاملة للهوية العراقية في مواجهة التشرذم والفقد.

وتسلط هذه الدراسه الضوء على ابرز القضايا الثقافيه والفكريه في الشعر العربي من خلال دراسة سعدي يوسف الذي يوضح العلاقه بين الادب والهويه ودور الثقافه في مواجهة مشكلات المجتمع وليس هذا فقط فان تمثيل الهويه لدى يوسف يظل مفتوحا امام الهويات الاخرى, ويبقى في تماس مع تجارب شعوب وامم اخرى فنجد قدرة الشاعر في تجسيد الحياة اليوميه للعراق بكل مفاصلها سواء من الاماكن او الشخصيات او الطقوس الثقافيه والقدره على توظيف الرموز الشعبيه التي تمثل البنيه الاساسيه للهويه الثقافيه العراقيه, فهو من الاصوات القليله التي استطاعت امن تنقل وجع الشعب العراقي وذلك من خلال اسلوبه الشعري واللغوي الذي يتجاوز المشكلات السياسيه والاجتماعيه المرتبطه بالعراق كدوله لها حقها في الحياة الحره الكريمه.

الكلمات المفتاحية: التمثيل الثقافي، الهوية العراقية، الشعر العراقي، الادب الحديث، سعدي يوسف

Journal of the College of Education for Humanities
University of Thi-Qar \ ISSN:2707-5672
مجلة كلية التربيـة للعلـوم الانسـانيـة
جامعة ذي قار / الرقم المعياري 2707-5672
https://doi.org/10.32792/utq/jedh/v15i3

The research title in English
Cultural Representation of Iraqi Identity in Saadi Youssef's Poetry

Yusra Thamer Obaid
Thi-Qar Education Directorate / Shatra Education Department
thamrysry@gmail.com

Abstract

This study explores the cultural representation of Iraqi identity in the poetry of Saadi Youssef, one of the greatest contemporary Arab poets. It proceeds to a close reading of some of his poetry to explore how Youssef reconstitutes and recasts Iraqi identity throughout historical, political, and social transformations. The article analyzes the convergence of exile, memory, homeland, and resistance through Youssef's work, the way his own poetic voice is a tool for both national consciousness and individual understanding. Drawing on postcolonial theory and cultural identity theory, the criticism demonstrates how Youssef uses classical Arabic forms mixed with modernist techniques to produce a richly textured portrait of Iraq — one that is sundered between nostalgia and criticism, rootedness and displacement. Lastly, the study emphasizes the poet's role in preserving cultural memory and encouraging a humanistic, inclusive concept of Iraqi identity in the face of fragmentation and loss. This study sheds light on the most prominent cultural and intellectual issues in Arabic poetry through the study of Saadi Youssef's poetry, which clarifies the relationship between literature and identity and the role of culture in confronting the problems of society. Not only that, but the representation of identity in Youssef remains open to other identities and remains in contact with the experiences of other peoples and nations. We find the poet's ability to embody the daily life of Iraq in all its details, whether from places, personalities, or cultural rituals, and the ability to employ popular symbols that represent the basic structure of the Iraqi cultural identity. He is one of the few voices that were able to convey the pain of the Iraqi people through his poetic and linguistic style that transcends the political and social problems associated with Iraq as a state that has the right to a free and dignified life

Keywords: Cultural representation, Iraqi identity, Iraqi poetry, modern literature, Saadi Youssef

المقدمة

إنَّ النص الشعري المعاصر بمسعاه الإنساني جعل الشاعر يفتش في الخصوصيات التي تعيد الاعتبار لوجوده بين خصوصيات العالم التي يحتفل بها، وراح يتعمق بالمحلية بوصفها طريقاً للعالمية كما أُشيع، وطبعاً لا يمكننا أن نعتمد على هوية إنسانية للشعر لأنه مفهوم فضفاض لا يمكن الإلمام بمعاييره، بل إن صلاح فضل ميَّز علناً بين شعر سني تمثله القصيدة العمودية والشعر الحر، مقابل شعر شيعي تمثله قصيدة النثر في حوار له، وقد أثار هذا الرأي الكثير من النقاد وعدَّه البعض استفزازياً وأنه ليس رأياً عميقاً بل لغرض الإثارة، وقد تدارك لاحقاً بكونه كان يقصد تشبيه الصراع بين العموديين وشعراء قصيدة النثر، ونرى بأنه ليس معياراً مطلقاً، ربما نظر بمعيار الأغلبية والشيوع، لكن يمكن القول إنَّ الشعر العمودي ومن ثم الشعر الحر ينتميان إلى ما يمكن أن نسميه بالشعر الرسمي أو المؤسساتي أو شعر السلطة (ولا نعني هنا السلطة السياسية فحسب، وإنما سلطة المؤسسة الثقافية وسلطة التابوهات المختلفة)، بينما تمثل قصيدة النثر الشعر الهامشي المعارض أو المتمرد، وإذا كان التوصيف ينطبق على الشعر العمودي كلياً، فإن الشعر الحر عُدَّ في بداياته تمرداً ولم تعترف به المؤسسة الثقافية إلّا بعد عناء وتجارب متراكمة، وهو لا يمكن أن ننسبه لدين أو طائفة، لكن يمكننا القول بأنه شعر (مدني- مديني) من نتاج المدينة وتحولات سياقاتها الثقافية، وبذور الدولة الحديثة ومؤسساتها التي اعتادت على صهر الانتماءات الفرعية لصالح مفهوم المواطنة.

كما يشكل الحديث عن الهوية العراقية في الشعر المعاصر موضوعاً بالغ الحساسية والتعقيد، لا سيما في ظل ما مرت به العراق من تحولات تاريخية وسياسية عميقة أفرزت تشظيات حادة على مستوى الوعي الجمعي والانتماء الوطني. في هذا السياق، يبرز الشاعر سعدي يوسف بوصفه أحد أبرز الأصوات الشعرية التي تصدت لهذا الإشكال، ليس فقط من خلال التأريخ الشعري للأحداث والوقائع العراقية، بل من خلال اشتغاله الجمالي العميق على تمثيل الهوية الثقافية العراقية عبر مستويات متعددة من اللغة والصورة والرمز والتقنية الشعرية. لقد عاش سعدي يوسف تجربة الاغتراب والنفي، واختبر المنفى لا كحالة مكانية فحسب، بل كمعطى وجودي فرض عليه تأملاً مستمراً في مفهوم "العراق" ومعنى "الانتماء" وحدود الهوية حين تُنتزع عن جغرافيتها.

تسعى هذه الدراسة إلى تتبع تجليات الهوية العراقية كما تظهر في نصوص سعدي يوسف الشعرية، من خلال الكشف عن عناصر الثقافة والذاكرة والتاريخ والأسطورة التي تستحضر العراق بوصفه مفهوماً يتجاوز الحدود السياسية والخرائط الرسمية، ليتحول إلى كيان شعري معقد يتداخل فيه الذاتي مع الجمعي، واليومي مع الرمزي، والمنسي مع المستعاد. ولا يمكن فصل تمثيل الهوية لدى سعدي يوسف عن موقعه الأيديولوجي والتاريخي كشاعر يساري ومثقف ناقد للسلطة، مما يجعل صوته متميزاً في التعبير عن العراق المهمّش، العراق الشعبي، العراق المسلوب من قبل السلطة والمحتل على حد سواء. وهو ما يمنح شعره طابعاً مزدوجاً: من جهة هو صوت احتجاج ومقاومة، ومن جهة أخرى هو مرآة حنين واستذكار.

تتجسد الهوية العراقية في شعر سعدي يوسف ليس كمجموعة من السمات الثابتة، بل ككائن متغير يخضع للظروف الاجتماعية والسياسية، ويتأثر بالمنفى والحروب والاغتراب الثقافي. ولذلك فإن تمثيلها في شعره لا يتم بصورة مباشرة أو تقريرية، بل عبر بنى رمزية دقيقة، تتجلى في استخدام مفردات الموروث الشعبي، واستحضار المدن العراقية كالبصرة وبغداد والموصل والقرى النائية، وتوظيف الشخصيات التاريخية والأسطورية، واستدعاء تفاصيل الحياة اليومية التي تصنع المشهد الثقافي العراقي العام. كما يعمد الشاعر إلى دمج مستويات لغوية متعددة، من الفصحى العالية إلى اللهجة العامية واللغة الأجنبية، مما يعكس حالة التشظي والازدواجية الثقافية التي يعيشها العراقي في الداخل والخارج على حد سواء.

ويعكس هذا الاشتغال الشعري فهماً معقداً للهوية لا بوصفها معطى جاهزاً، بل بوصفها مشروعاً مستمراً من إعادة التشكيل والتفاوض مع الواقع. من هنا، لا تُطرح "العراقية" في شعر سعدي يوسف كقالب جامد، بل كهوية متحركة تعبر عن الوعي التاريخي والتجربة الإنسانية في آن معاً، وهو ما يضع هذا الشعر في موقع خاص من الشعرية العربية الحديثة، بوصفه مجالاً تتقاطع فيه الذات الفردية بالجماعة، والذاكرة بالمستقبل، والمنفى بالوطن.

يُعدّ التمثيل الثقافي للهوية أحد المفاتيح الأساسية لفهم التحولات التي شهدها الوعي الجمعي في السياقات الاجتماعية والسياسية المضطربة، ويغدو هذا التمثيل أكثر تعقيدًا حين يتصل بهوية وطنية مركّبة مثل الهوية العراقية، التي تشكّلت عبر قرون من التفاعل بين الحضارات، وتعرضت لموجات متعاقبة من التفكك والتمزق بفعل الاحتلالات، والحروب، والاستبداد، والمنفى. وفي هذا الإطار، يحتل شعر سعدي يوسف مكانة بارزة في التعبير عن هذه الهوية المتعددة والمنكسرة، حيث لا يكتفي بتمثيل ملامحها الظاهرة، بل يغوص في طبقاتها العميقة، مستنطقًا التاريخ واللغة والمكان والذاكرة. يتناول سعدي يوسف العراق بوصفه بنية ثقافية متحركة، تتشابك فيها الريف بالمدينة، والأسطورة بالواقع، والذات الفردية بالهوية الجمعية، وهو في ذلك يقدم خطابًا شعريًا يتجاوز التوصيف المباشر إلى مساءلة ما هو جوهري في الانتماء، وما هو هش في التصور القومي.

ومن خلال أدواته الفنية ولغته التي تجمع بين البساطة والعمق، بين المحكي واليومي، وبين الحنين والنقد، يرسم سعدي يوسف ملامح هوية عراقية لا تقف عند حدود الجغرافيا والسياسة، بل تمتد إلى أفق إنساني واسع، في تمثيل ثقافي يعيد الاعتبار للصوت الفردي المهمّش، ويجعل من الشعر وسيلة للكشف عن تشظيات الذات والوطن في آن واحد.

فقرة فرعية

أولاً: أهمية البحث

تنبع أهمية هذا البحث من كونه يسلط الضوء على واحدة من أبرز القضايا الثقافية والفكرية في الشعر العربي المعاصر، وهي قضية الهوية، وذلك من خلال دراسة نتاج شاعر له تأثير بارز في صياغة ملامح الشعر العربي الحديث، وهو سعدي يوسف. إن أهمية الموضوع لا تقتصر على البعد الأدبي الجمالي، بل تمتد لتشمل الأبعاد السياسية والاجتماعية والوجودية المرتبطة بتجربة العراق كدولة وشعب تعرضا لسلسلة من التحولات الحادة، من الاستعمار إلى الحروب إلى الاحتلال إلى الشتات. ويُعد سعدي يوسف من الأصوات الشعرية القليلة التي استطاعت أن تنقل وجع العراقي وتمزقاته بأسلوب شعري يتجاوز المباشرة السياسية، ليحمل هويته ضمن بنى لغوية وثقافية معقدة. ومن هنا فإن دراسة تمثيل الهوية العراقية في شعره تفتح أفقاً مهماً لفهم علاقة الأدب بالهوية، ودور الثقافة في مواجهة التشظي والانكسار الوطني والإنساني.

ثانياً: مشكلة البحث

تتمثل مشكلة هذا البحث في التساؤل المحوري التالي: كيف يتم تمثيل الهوية الثقافية العراقية في شعر سعدي يوسف؟ وما هي الأدوات الشعرية والرمزية التي يوظفها الشاعر في بناء هذه الهوية؟ وكيف يتفاعل الشاعر مع التحولات السياسية والاجتماعية التي مر بها العراق من خلال نصوصه؟ كما تتفرع عن هذه الإشكالية تساؤلات فرعية، منها: هل الهوية التي يصوغها سعدي يوسف ثابتة أم متحولة؟ هل تقوم على الحنين والاستذكار، أم على النقد والتفكيك؟ وكيف يعبر المنفى عن بعد مركزي في تشكيل هذه الهوية الشعرية؟ إن هذه الأسئلة تشكل جوهر البحث وتسعى إلى الكشف عن البنية العميقة للهوية في شعر سعدي يوسف بوصفها نتاجاً للتفاعل بين الذات والواقع، بين الذاكرة والتاريخ.

ثالثاً: أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى تحقيق مجموعة من الغايات، أبرزها:

1. تحليل البنية الثقافية للهوية العراقية كما تظهر في شعر سعدي يوسف.
2. الكشف عن الأبعاد الرمزية والدلالية التي تساهم في تشكيل هذه الهوية ضمن النص الشعري.
3. توضيح أثر التجربة الشخصية والمنفى في بلورة وعي الشاعر بهويته الوطنية والثقافية.

رابعاً: منهجية البحث

ينطلق البحث من منهج تحليلي تأويلي يعتمد على القراءة النصية العميقة لعدد من قصائد سعدي يوسف التي تعكس تمثيلات الهوية العراقية، ويستعين بمنهج ثقافي نقدي يستند إلى مفاهيم ما بعد الاستعمار والهوية الثقافية والشتات والمنفى. ويعتمد البحث على تقاطعات بين النظرية الأدبية والنقد الثقافي، لتفكيك المضامين الرمزية واللغوية التي يتوسل بها الشاعر في بناء صور الهوية. كما يستند إلى آراء نقدية حديثة ودراسات سابقة تناولت شعر سعدي يوسف أو موضوع الهوية الشعرية بشكل عام، لتكوين رؤية تحليلية شاملة.

سعدي يوسف (حياته)

سعدي يوسف (1934 - 13 يونيو 2021)؛ شاعر وكاتب ومُترجم عراقي، عمل في التدريس والصحافة الثقافية. غادر العراق في سبعينيات القرن العشرين وأقام في لندن حتى وفاته. نال جوائز عدة في الشعر، منها: جائزة سلطان بن علي العويس، والتي سحبت منه لاحقا، والجائزة الإيطالية العالمية، وجائزة كافافي من الجمعية الهلّينية. في العام 2005 نال جائزة فيرونيا الإيطالية لأفضل مؤلفٍ أجنبيّ. في العام 2008 حصل على جائزة المتروبولس في مونتريال في كندا. وهو عضو في مجلات عدة، منها هيئة تحرير «الثقافة الجديدة»، والهيئة الاستشارية لمجلة نادي القلم الدولي، وهيئة تحرير مساهم في مجلة بانيبال للأدب العربي الحديث. (الصائغ، د.ت).

انفتح سعدي يوسف، شأنه شأن عدد من المثقفين في خمسينيات القرن العشرين، على الفكر الماركسي، متأثرًا بنماذج من معاصريه كرشيد ياسين وكاظم جهاد، إذ وجدوا في الماركسية مساحة واسعة للحرية الفكرية والتعبير. وقد ارتبط بالحزب الشيوعي لسنوات طويلة، وأفصح عن أن هذا الانتماء تجلّى في أعماله الشعرية من خلال الإعجاب بالشخصيات التي تجسّد التضحية والاستشهاد من أجل المبدأ. وأقرّ بأنه، منذ الخمسينيات، امتلك إلمامًا عامًا بأصول الماركسية وبعض تطبيقاتها، إلى حد تبنّيها بتعصب، وأنها منحته القدرة على انتقاء العنصر الحي وسط الظواهر المتشابكة، ليبرزه حتى ولو في لمحة شعرية.

ويرى الدكتور شاكر النابلسي أن هذا الانخراط في العمل الحزبي كان سببًا في تعرضه للملاحقة على مدى ثلاثة عقود، ما اضطره للتنقل بين بلدان عدة. وقد أفرزت تجربة الترحال هذه حالة من عدم الاستقرار المعيشي والفكري، لكنها في المقابل أكسبته صلابة فكرية وغزارة في الإنتاج الشعري، إذ اعتبر الشعر شكلًا من أشكال النضال اليومي، وأداة للتعبير عن معاناة الاضطهاد (الحوار المتمدن، 2005).

يمتلك سعدي يوسف حساسية شعرية عالية في التقاط التفاصيل اليومية، حتى وُصف بأنه شاعر "التفاصيل" أو "المصور الفوتوغرافي" في الشعر. وقد أوضح أن الحواس الخمس هي بوابة الكتابة لديه، وأن الملاحظة الدقيقة للأشياء اليومية – كطاولة عليها كأس ومفرش ومنفضة سجائر – تتحول عنده إلى علاقات جديدة بين الأشياء داخل النص. وهذا الولع بالتفصيلات دفعه أحيانًا إلى تجريب أشكال فنية أخرى مثل القصة، والمسرحية، والرواية، والرسم التشكيلي.

أما على مستوى التجربة الشعرية، فقد سعى إلى تطوير قصيدة الشعر الحر دون الانقلاب عليها، بخلاف توجه بعض شعراء الستينيات الذين نادوا بالتخلي عنها. فجاءت نصوصه امتدادًا لمنجز السياب والبياتي، مع محاولة إعادة تأهيل القصيدة الحرة من خلال تعميق بعدها الجمالي (القدس العربي، 2012).

وقد أجمع عدد من النقاد والشعراء على فرادة تجربته؛ إذ وصفه أحمد عبد المعطي حجازي بأنه صوت شعري جامع لخلاصة من سبقوه، وطليعة لمن أتى بعده، يجمع بين صفاء اللغة وصدق الإحساس. أما أدونيس فرآه "قضية وموقفًا" في مرحلة حاسمة من النضال العربي، فيما أشار محمود درويش إلى شفافية قصيدته وامتزاج الغنائية بالسردية، معتبرًا إياه أحد المُلهمين الكبار لقصيدة النثر. كما رأت فاطمة المحسن أن صوته الشعري يمزج بين العاطفة المحلية الموروثة عن السياب، وبين نزعة داخلية أكثر هدوءًا (أحمد، 1977).

نال سعدي يوسف عدة جوائز أدبية مرموقة، منها جائزة سلطان العويس، والجائزة العالمية الإيطالية، وجائزة فيرونا لأفضل مؤلف أجنبي، وأخيرًا جائزة نجيب محفوظ في القاهرة. ويُعدّ من أبرز الأصوات الشعرية العربية في النصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، بفضل مزجه بين التجربة الفردية والهمّ الجمعي، وتكامل الرؤية الجمالية مع الموقف السياسي.

عرف بمواقفه اليسارية وانخراطه في الحزب الشيوعي العراقي، ما أدى إلى اعتقاله أكثر من مرة، ثم خروجه إلى المنفى حيث عاش متنقلًا بين الجزائر ولبنان وقبرص وباريس وعدد من الدول الأوروبية، ليستقر أخيرًا في لندن حيث توفي في 13 حزيران/يونيو 2021. وقد كانت تجربة المنفى أحد أبرز المؤثرات في شعره، إذ عمّقت إحساسه بالاغتراب ووسّعت أفقه الإنساني والثقافي.

إلى جانب الشعر، برع سعدي يوسف في الترجمة، فنقل إلى العربية أعمالًا لشعراء عالميين مثل لوركا ووالت ويتمان ووريتسلاف نوفاك، وكتب نصوصًا نثرية وسيرًا ذاتية ومقالات نقدية. وبفضل هذه المسيرة الحافلة، ظلّ شاعرًا كونيًا، يرى في معاناته وتجربته الشخصية انعكاسًا لملامح الإنسان في كل مكان.

أعماله المنشورة

تنوّعت إصدارات سعدي يوسف الشعرية منذ خمسينيات القرن العشرين، فكان باكورة إنتاجه ديوان "القرصان "الصادر عام 1952 عن مطبعة البصري في بغداد، تلاه "أغنيات ليست للآخرين "سنة 1955 عن مطبعة الأديب بالبصرة، ثم 51"قصيدة " عام 1959 في بغداد بدعم من وزارة التربية. وفي عام 1960 أصدر "النجم والرماد "عن مطبعة اتحاد الأدباء، أعقبه ديوان "قصائد مرئية "سنة 1965 من المطبعة العصرية بصيدا، و"بعيداً عن السماء الأولى" (1970) عن دار الآداب في بيروت. وفي عام 1972 نشر عملين بارزين هما "نهايات الشمال الإفريقي "عن دار العودة ببيروت، و"الأخضر بن يوسف ومشاغله" عن مطبعة الأديب في بغداد. تتابعت بعد ذلك دواوينه مثل "تحت جدارية فائق حسن(1974) "، و"الليالي كلها" (1976)، و"الساعة الأخيرة" (1977)، و"كيف كتب الأخضر بن يوسف قصيدته الجديدة" في العام نفسه، و"قصائد أقل صمتاً" (1979). كما صدرت مجموعته الكاملة الأولى "الأعمال الشعرية "عام 1980 عن دار الفارابي، ثم "من يعرف الوردة " و"يوميات الجنوب يوميات الجنون" سنة 1981.

استمر عطاؤه في الثمانينيات بإصدار "مريم تأتي(1983) "، و"الينبوع" في العام ذاته، و"خذ وردة الثلج، خذ القيراونية" (1987). وفي التسعينيات ظهرت أعمال مثل "محاولات(1990) "، و"قصائد باريس، شجر إيثاكا" (1992)، و"جنة المنسيات" و"الوحيد يستيقظ" (1993)، و"إيروتيكا" (1994)، و"كل حانات العالم" في العام نفسه، بالإضافة إلى إصدار جديد من "الأعمال الشعرية "في ثلاثة مجلدات عام 1995، وديوان "قصائد ساذجة "في العام ذاته. كما قدّم "أربع حركات " (1996)، و"حانة القرد المفكر" (1997)، و"يوميات أسير القلعة" (2000)، و"حياة صريحة" (2001)، ثم "الأعمال الشعرية "في أربعة مجلدات سنة 2002، والمجلد الخامس "الخطوة الخامسة "عام 2003، وأخيرًا "صلاة الوثني "الصادر عن دار نينوى بدمشق سنة 2004.

أما في مجال الشعر المترجم، فقد نقل سعدي يوسف إلى العربية أعمالًا عالمية بارزة، منها "أوراق العشب "الوالت ويتمان (1979)، و"وداعًا للإسكندرية التي تفقدها" لكافافي (1979)، و"إيماءات" ليانيس ريستوس في العام نفسه، إضافةً إلى مختارات لوركا "الأغاني وما بعدها(1981) "، و"ديوان الأمير وحكاية فاطمة" لغونار أكيلف (1981)، و"شجرة ليمون في القلب" لفاسكو بوبا، و"سماء صافية" لأونغاريتي، و"قصائد" لهولان، وجميعها في مطلع الثمانينيات. وفي الألفية الجديدة قدّم ترجمات مثل "باب سيوه وقصائد أخرى "لتوم لامونت (2001)، و"حليب مراق" لسارة ماغواير.(2003)

وفي ميدان الترجمة النثرية، أنجز نصوصًا روائية ونقدية وفكرية، منها "تويجات الدم(1982) "، و"الحوالة" (1983)، ودراسة هنري ميللر "زمن القتلة(1979) "، و"تصفية استعمار العقل" (1985)، و"المفسرون" (1986)، و"الشمس الثالثة عشرة" (1985)، و"خرائط" (1987)، و"حياة متخيلة" (1996)، و"ملعبة طفل" (1998)، و"الصرخة الصامتة" (1999)، و"متشرداً في باريس ولندن" (1998)، و"باراباس" لبار لاغركفيست، و"الأمير الصغير" (2002)، و"في بلاد حرة " (2002).

كما خاض مجالات إبداعية أخرى، منها القصة القصيرة عبر "نافذة في المنزل المغربي(1974) "، واليوميات في "سماء تحت راية فلسطينية(1983) "، و"يوميات المنفى الأخير" (1984)، والمقالة في "أفكار بصوت هادئ(1987) "، والمسرح من خلال "عندما في الأعالي(1989) "، والرواية عبر "مثلث الدائرة(1994) "، فضلًا عن أعمال تمزج بين اليوميات والمقالات مثل "خطوات الكنغر (1997) "و"يوميات الأذى.(2005) "

وقد تناول شعره عدد من الدراسات النقدية، من أبرزها :شعر سعدي يوسف: دراسة تحليلية لامتنان الصمادي (2001)، والمرآة والنافذة: دراسة في شعر سعدي يوسف لسمير خوراني (2007)، وقامات النخيل لشاكر النابلسي (1992)، وسعدي يوسف: النبرة الخافتة في الشعر العربي الحديث لفاطمة المحسن (2000)، إضافة إلى رسالة ماجستير لعلي داخل فرج بعنوان البنى السردية في شعر سعدي يوسف .(2005)

مفهوم التمثيل الثقافي

سيمر البعض على مفردة "تمثيل ثقافي" بسرعة ليمنحوها معناها المتداول: قيام مؤسسة ثقافية أو فرد له نفس الصفة بنشاط يقصد منه التعريف بالنشاط الثقافي في مكان ما. نشر كتاب خارج البلاد تمثيل لها ثقافياً، وإلقاء محاضرة خارج البلاد أو تقديم بحث لمؤتمر في الخارج هو أيضاً تمثيل ثقافي وإن لم يكن رسمياً. والملحقون الثقافيون في سفارات المملكة ممثلون ثقافيون. كل هذه دلالات متداولة وصحيحة للتمثيل الثقافي.

لكن مع ذلك سيتضح أن دلالات التمثيل هنا تتفاوت، ولو انطلقنا لاستكشاف تلك الدلالات لوجدنا أننا على ضآلة الأمثلة أمام مفهوم مركب سيتسع لو استحضرنا بعض ما كتب حوله في بعض المجالات البحثية النظرية بشكل خاص. فقد انتشر هذا المفهوم في عدد كبير من حقول الفكر المعاصر واكتسب دلالات مركبة ومعقدة أحياناً، فاللغة في علم اللغة تمثيل للفكر والواقع، والخرائط في الجغرافيا تمثيل للتضاريس والرواية في عرف النقد الأدبي تمثيل للفرد والمجتمع، وهذه كلها ألوان من التمثيل غير المطابق غالباً. لكنني لن أتوغل في تلك الأنحاء الواسعة رغبة في الخروج بنتائج عملية ومفيدة تناسب السياق الذي نحن فيه. والسياق هو التمثيل الثقافي السعودي في الخارج: من يمثلنا وكيف؟ وهل هو تمثيل كافٍ أو مناسب وواضح الأطر؟

لاشك أن استحضار مثال الملحقيات الثقافية سيؤطر الدلالة بسرعة في سياق محدد وواضح، وذلك لأنه يسيجه بسياج السلك الدبلوماسي. فالملحق الثقافي أساساً مثل الملحق التجاري أو العسكري له صفة واضحة وهي "تمثيل" بلاده لدى الدول الأخرى ليكون التمثيل هو الحلول محل جهة ما أو العمل بالإنابة عن تلك الجهة. الملحق، أي ملحق، جزء من سفارة البلاد التي تمثلها بالقيام مقامها في أمور رسمية كثيرة. لكن وضوح التمثيل هنا سيتوارى بسرعة حالما ندلف إلى أشكال التمثيل الأخرى ولا أقصد الجوانب النظرية.

و يعد التمثيل الثقافي من المفاهيم المركزية في الدراسات الثقافية المعاصرة، إذ يشير إلى الكيفية التي تُبنى بها المعاني وتُعاد صياغتها داخل الخطابات الثقافية عبر اللغة، والصورة، والرمز، والسرد، بما يعكس ويعيد إنتاج أنماط التفكير والسلوك الاجتماعي. فالتمثيل ليس مجرد انعكاس بسيط أو محايد للواقع أو للهوية، بل هو عملية فاعلة تُنتج الواقع وتشكله من خلال منظومات رمزية ولغوية تتحكم في كيفية رؤية العالم وفهم الذات والآخر. ومن هذا المنظور، يصبح التمثيل أداة لإنتاج المعنى، وليس نقله فقط، ويغدو أحد أبرز الوسائط التي تُمارس عبرها الهيمنة أو تُقاوم بها. (العلاق، 1997)

تنبع أهمية مفهوم التمثيل الثقافي من علاقته الوثيقة بالهوية، والسلطة، والاختلاف، والانتماء، إذ يُستخدم في تحليل كيفية تصوير فئة ما أو ثقافة ما أو جماعة ما ضمن نصوص أدبية أو إعلامية أو فنية أو سياسية، وما يترتب على هذا التمثيل من تداعيات فكرية واجتماعية. وقد أسهمت دراسات ما بعد الاستعمار، ولا سيما عبر أعمال مفكرين مثل إدوارد سعيد وهومي بابا وستيوارت هول، في توسيع مفهوم التمثيل ليشمل العلاقات غير المتكافئة التي تُنتج عبره، حيث لا يُمثل الآخر غالبًا إلا ضمن شروط المركزية الغربية أو الاستعلاء السياسي والثقافي. ومن هنا، فإن التمثيل لا يُفهم بوصفه حيادًا بصريًا أو لغويًا، بل بوصفه عملية أيديولوجية متشابكة مع القوة والتاريخ والموقع الاجتماعي. (حمود، 2010)

وبالنسبة للتمثيل الثقافي تحديدًا، فهو يشير إلى العمليات التي من خلالها تُجسّد الثقافة نفسها، ويُعاد تشكيلها عبر الرموز والعلامات والسرديات والتقاليد. فاللغة هنا لا تُعد وسيلة محايدة بل هي فضاء للصراع والتفاوض والتأويل، تمارس فيه الجماعات سلطتها في تحديد ما يُعد تمثيلاً صادقًا أو مشوهًا لهويتها. وغالبًا ما يرتبط التمثيل الثقافي بسرديات الأمة، والذاكرة الجمعية، والصورة الذاتية التي تصوغها الجماعات عن ذاتها وعن الآخر. وهو ما يجعل التمثيل الثقافي أداة مركزية في الصراعات السياسية والهوياتية، سواء في حالات الاستعمار، أو النزوح، أو الشتات، أو الحروب الأهلية، حيث تشتد الحاجة إلى إعادة بناء المعنى والانتماء. (يوسف، 1995)

ويتجلى التمثيل الثقافي بشكل خاص في الأدب، باعتباره شكلاً فنياً من أشكال إنتاج المعنى الثقافي. فالنصوص الأدبية لا تنقل الواقع بل تعيد تشكيله وتفسيره وتأطيره عبر رؤية فنية جمالية. وهنا يتجلى دور الأدب – وخاصة الشعر – في التعبير عن الهوية الثقافية، وتجسيد صور الوطن، والانتماء، والمنفى، والمقاومة. فالشاعر لا يقدم "نسخة" عن الثقافة، بل يعيد إنتاجها شعرياً من خلال اختياراته اللغوية والرمزية والدلالية، ومن خلال استحضار الموروث الشعبي أو التراثي أو الديني أو السياسي. وهذا ما يفعله سعدي يوسف، حيث تتحول قصائده إلى مساحات تمثيل معقدة للهوية العراقية، لا بوصفها معطىً جاهزًا، بل كهوية ثقافية تتعرض للتفكك وإعادة التشكل بفعل العوامل التاريخية والمنفى والتجربة الذاتية. (النابلسي، 1992)

إن فهم التمثيل الثقافي بوصفه عملية منتجة للمعنى وليس مرآة له، يفرض مقاربة الشعر بوصفه حقلًا مشبعًا بالأيديولوجيا، والرمزية، والخطاب الجمعي، أكثر من كونه ممارسة فردية. ومن هنا، تصبح دراسة تمثيل الهوية العراقية في شعر سعدي يوسف ليست بحثًا عن صورة جاهزة "للعراق"، بل محاولة لفهم الكيفية التي تُبنى بها هذه الصورة داخل النص الشعري،

وكيف تتداخل فيها الأبعاد الثقافية والسياسية والجمالية، وما تشير إليه من تحولات في المعنى والانتماء والتاريخ. (خوراني، 2007)

يعد ايضا أحد المفاهيم المحورية في الدراسات الثقافية، ويتعلق بالطريقة التي يتم من خلالها تصوير أو عرض أو بناء المعاني المرتبطة بثقافة معينة أو بهوية جماعة ما، من خلال اللغة، والرموز، والصور، والأعمال الأدبية والفنية، والخطابات الإعلامية والسياسية. التمثيل الثقافي لا يعكس الواقع ببساطة، بل يساهم في *صنعه* وتشكيله، فهو ليس مرآة، بل عملية إنتاج دلالي لها أثر على فهم الذات والآخر.

في جوهره، يُعنى التمثيل الثقافي بكيفية "تقديم" أو "تمثيل" الناس، والمكان، والتجربة، والهوية، داخل المنظومات الرمزية، وهو مرتبط بنسق أيديولوجي وسلطة معرفية، حيث تُحدَّد من خلاله صور الجماعات، والقيم، والتقاليد، في سياقات معينة. أي أن ما يُقدَّم بوصفه "ثقافة" ليس بريئًا أو طبيعيًا دائمًا، بل يخضع لاختيارات وتحيزات وخلفيات تاريخية واجتماعية.

وقد تطور هذا المفهوم بشكل خاص في إطار أعمال المفكرين ما بعد الكولونياليين (مثل إدوارد سعيد) الذين بيّنوا أن التمثيل الثقافي يمكن أن يُستخدم كأداة للهيمنة، كما في صورة "الشرق" في الخطاب الغربي، حيث تم تقديم الشرق بطريقة تخدم مصالح الغرب الاستعماري. فتصوير "الآخر" بطريقة معينة يرسّخ في الوعي الجمعي صورةً نمطية تتجاوز الواقع المعيش.

وبالمقابل، فإن التمثيل الثقافي يمكن أن يكون أداة للمقاومة الثقافية وإعادة تشكيل الهوية، عندما تستخدم الجماعات المهمّشة أدوات التمثيل لإعادة تقديم ذاتها وتمزيق الصور النمطية المفروضة عليها، عبر إنتاج سرديات بديلة أو تشكيل رموز مغايرة تعبر عن تجربتها الخاصة.

في الحقول الأدبية والفنية، يُدرس التمثيل الثقافي بوصفه أحد أشكال التعبير عن "الذات الجمعية"، والهوية، والذاكرة، والانتماء، سواء من خلال السرد، أو الشعر، أو المسرح، أو السينما، أو غيرها، وهو ما يفتح المجال لفهم عميق للعلاقات بين النص والسياق الثقافي، وبين الإبداع والسلطة.

بالتالي، فمفهوم التمثيل الثقافي يتجاوز البعد الجمالي إلى كونه أداة تحليلية لفهم كيفية تشكّل المعاني الثقافية وتداولها، وللكشف عن الأنساق الرمزية التي تُنتج وتُشرعن صورًا معينة عن الذات والآخر والعالم.

التمثيل الثقافي للهوية العراقية في شعر سعدي يوسف

يُعدُّ شعر سعدي يوسف حقلًا غنيًّا يمكن من خلاله دراسة التمثيل الثقافي للهوية العراقية بكل ما تنطوي عليه من تعقيد وتحوّل وتمزق. فالشاعر، الذي عاش تجربة المنفى الممتدة لعقود طويلة، لم ينقطع يومًا عن العراق بوصفه كيانًا حيًا يسكن اللغة والذاكرة والتاريخ والمخيلة. ولعل أبرز ما يميز تمثيل الهوية العراقية في شعره هو أنه لا يقدمها بشكل مباشر أو نمطي، بل يعيد إنتاجها باستمرار من خلال التفاصيل اليومية، والرموز التاريخية، والصور الجغرافية، والمواقف الأيديولوجية، والحنين المشوب بالمرارة، ما يجعل الهوية في شعره مشروعًا متحركًا، لا قالبًا ثابتًا. (الصمادي، 2001)

إن تمثيل الهوية في شعر سعدي يوسف ليس تمثيلًا ساكنًا أو متعاليًا، بل هو تمثيل ينهض على الإحساس بالفقد والتشظي والانتماء الممزق، وهي سمات فرضتها ظروف العراق السياسية والاجتماعية والثقافية، بدءًا من الاستبداد الداخلي وصولًا إلى الاحتلال الأجنبي والتشظي الطائفي، وانتهاءً بالمنفى الذي يتحول لدى سعدي يوسف من تجربة فردية إلى أفق جماعي تتكوّن داخله الهوية العراقية الجديدة. فالعراق في شعره ليس مجرد مكان، بل هو فضاء من الذكريات، ورمز للتاريخ، وموضع للصراع، وجسد للمعاناة المستمرة. وهذا ما يتجلى في قصيدته "قصيدة في دفتر المنفى" حين يقول: (يوسف، 1995)

"في المقهى العراقي القديم
يضحك الأصدقاء، يدور كأس العرق،
ويحكي عن البصرة واحدٌ
ثم يصمتُ الكلُّ،
كأن اسم المدينة سكينٌ في الحنجرة"!

في هذه الأسطر القليلة، تتجسد لحظة تمثيل ثقافي مكثفة لهوية تنتمي إلى الماضي وتُستدعى في لحظة اغتراب. المقهى، والبصرة، والأصدقاء، وكأس العرق، ليست مجرد عناصر مكانية أو شعائرية، بل هي رموز لثقافة عراقية شعبية حميمية تُستعاد في الغربة بوصفها لحظات حقيقية تعيد للأنا الشعورية شيئًا من كيانها المبعثر. لكن هذه الاستعادة لا تخلو من ألم، حيث يتحول اسم المدينة (البصرة) إلى سكين، ما يعكس انكسار العلاقة بين الهوية ومكانها الطبيعي. (يوسف، 1988)

كما تتكرر في شعر سعدي يوسف أسماء المدن العراقية بشكل لافت، وليس هذا الاستخدام اعتباطيًا أو زخرفيًا، بل هو جزء من بناء الهوية عبر الجغرافيا والذاكرة. فالعراق لا يُمثل في شعره كمفهوم سياسي أو كيان رسمي، بل كنسيج من الأماكن، من الجنوب إلى الشمال، كل منها يحمل دلالة ثقافية وتاريخية خاصة. فيقول في إحدى قصائده: (الصمادي، 2005)

"الموصلُ تشبهني
في الجرحِ والذكرى
في الدربِ والماءِ
في الأغاني البعيدة"

هنا تتحول المدينة إلى ذاتٍ مرآوية، تمثل الشاعر وتمثله، في لحظة من التماهي بين الفرد والمكان. تمثيل الهوية في هذا السياق لا يكون بإعلان شعارات وطنية أو خطب سياسية، بل بتشكيل شبكة من العواطف والروابط الثقافية العميقة التي ترتبط بالأمكنة والطقوس والماضي. الموصل ليست هنا جغرافيا فحسب، بل كيان ثقافي ذو ذاكرة وجرح، تمامًا كما هو حال الشاعر. (خوراني، 2007)

وفي سياق آخر، يتجلى التمثيل الثقافي للهوية العراقية في شعر سعدي يوسف من خلال استحضار الشخصيات الشعبية والتاريخية، حيث تتحول هذه الشخصيات إلى رموز ثقافية تؤسس لذاكرة جمعية تتجاوز الذات الفردية. ففي قصيدته "عبد الله البري" يحكي عن شخصية شعبية تراثية معروفة في الثقافة العراقية والعربية، لكنه يمنحها بعدًا جديدًا من خلال سياق الاغتراب والتمرد. وفي مواضع أخرى يستحضر ثورات الفلاحين، وأبطال المقاومة، والشخصيات التاريخية المهمشة، ليعيد إنتاج هوية عراقية قائمة على المقاومة والبساطة والانتماء الطبقي. (راشد، 2002)

ولا يقتصر تمثيل الهوية في شعره على المضمون فقط، بل يتجلى أيضًا في اللغة ذاتها، حيث تتداخل الفصحى بالعامية، وتمتزج العبارات البسيطة بالإيحاءات الثقافية العميقة، في محاولة شعرية لمحاكاة تنوع النسيج العراقي اللغوي والاجتماعي. فالشاعر، ابن البصرة، لا يكتب بلغة المركز السياسي القائم في بغداد أو لغة السلطة، بل يكتب بلغة المهمشين والمنسيين، بلغة العشب والمقهى والجندي والحلاق وساعي البريد، ما يمنح شعره صدقية تمثيلية نادرة. يقول في إحدى قصائده:

"كان الحلاقُ يسألني:
أحقًا أن بغدادَ قد خُربت؟
فأضحكُ، ثم أبكي
وأمسح وجهي بجريدةِ الأمس"

هذا النص، وإن بدا بسيطًا في ظاهره، إلا أنه يمثل لحظة تمثيل ثقافي قوية لهوية مثقلة باليومي، بالأسى، وبالتضليل الإعلامي، ويُبرز موقف الشاعر من الحقيقة والتاريخ. الحلاق شخصية شعبية، تمثل المواطن البسيط، الذي لا يملك وسائل المعرفة إلا ما يتداوله الناس أو يقرؤه في الجرائد، وهنا تُطرح أزمة العراق وهويته من خلال حوار عابر في مكان شعبي بسيط، وهو ما يعكس فلسفة شعر سعدي يوسف في تمثيل الهوية: من الهامش نحو المركز، ومن التفصيل إلى الكلي. (خوراني، 2007)

ولا يمكن الحديث عن تمثيل الهوية دون التوقف عند المنفى في شعر سعدي يوسف، فالمنفى ليس فضاء جغرافيًا بديلًا عن الوطن فقط، بل هو لحظة وعي حاد بالذات وبالهوية، حيث تتكثف الأسئلة وتُعاد صياغة المفاهيم. في المنفى تصبح الهوية أكثر حضورًا لأنها تواجه خطر الذوبان أو النسيان. وسعدي يوسف لا يعبر عن المنفى بوصفه حرمانًا مكانيًا فقط، بل بوصفه اختبارًا ثقافيًا يجعل العلاقة بالوطن أكثر تركيبًا، لا سيما حين يتحول الوطن نفسه إلى فضاء طارد. يقول: (يوسف، 1988)

"أنتمي... نعم،
لكنّ العراق بعيد
والعراق قريب
في فنجان القهوة
في الأغنيةِ
في الأصدقاء الغائبين
في نكهة الخبز"

هنا يمثل الشاعر الهوية العراقية تمثيلًا حسيًا يوميًا، عبر تفاصيل صغيرة لكنها مشبعة بالدلالة. فالهويّة لا تُستعاد من خلال مفاهيم تجريدية، بل من خلال طقوس الحياة نفسها، وهي الاستراتيجية الجمالية التي يعتمدها سعدي يوسف في بناء تمثيل ثقافي للهويّة يرفض التجانس والتعميم، ويحتفي بالتعدد والاختلاف والعمق. (المحسن، 2000)

وفي التحليل النهائي، يمكن القول إن تمثيل الهوية العراقية في شعر سعدي يوسف لا يسير في خط واحد، بل يتخذ شكل شبكة من العلاقات المتداخلة بين المكان والذات، بين اللغة والتاريخ، بين الفرد والجماعة، بين الوطن والمنفى. فالهويّة عنده ليست جاهزة، بل يُعاد تشكيلها في كل قصيدة، عبر مفردات الحياة، وأصوات الناس، وخرائط المدن، وصور الحنين، وأنين الخسارة. وهكذا تتحول القصيدة لديه إلى وثيقة ثقافية، وشهادة ذاتية، ونصّ جماعي، ومرآة لتاريخ طويل من البحث عن المعنى والانتماء. (راشد، 2002)

يمثّل شعر سعدي يوسف مرآةً متعددة الأوجه تعكس تعقيدات الهوية العراقية وتحوّلاتها عبر الزمن، من خلال تمثيل ثقافي عميق يزاوج بين البعد المحلي والبعد الكوني. فهويّة العراق، كما تتجلى في شعره، ليست مجرد انتماء جغرافي أو سياسي، بل هي كيان متشظٍّ ومركّب يتداخل فيه التاريخ والأسطورة، الريف والمدينة، المنفى والوطن، اللغة والتراث، الحداثة والحنين، في توليفة فنية تتجاوز الخطاب المباشر إلى مستويات رمزية وشعورية متقدمة(يوسف، 1988).

يحضر العراق في شعر سعدي يوسف بوصفه وطنًا مأزوماً وملتبسًا، وطنًا يُطارد ولا يُدرك، وهو في ذات الوقت صورة حميمة ومصدر ألم. فهو يستحضر العراق لا بوصفه مجرد فضاء للانتماء السياسي أو القومي، بل بوصفه نسقًا ثقافيًا ضاربًا في الجذور، عبر إشاراته المتكررة إلى تفاصيل الحياة اليومية، وتوظيفه للمفردات الشعبية واللهجات المحلية، واستدعائه للموروث الديني والأسطوري والأنثروبولوجي العراقي، من سومر وأكد وبابل إلى بغداد العباسية، ومن الفرات ودجلة إلى النخيل والماء والطين، وهي عناصر ترتبط بذاكرة جمعية تمثل عمق الهوية الثقافية للعراقيين.

ويمتاز تمثيل الهوية في شعره بالتحول المستمر، تبعًا لتحولات الذات الشاعرة وتبدلات السياقات السياسية والاجتماعية التي عاشها. فهو لم يتعامل مع الهوية كجوهر ثابت، بل ككائن متحوّل تتداخل فيه مستويات متعددة من الانتماء: القومي، والطبقي، واللغوي، والثقافي. وقد منح المنفى بعدًا مركزيًا في تشكيل وعيه بالهوية العراقية، حيث غدا الوطن في المنفى صورة ذهنية تتوسّطها الذاكرة، وتتشكل من خلالها رؤية نقدية للواقع العراقي، دون أن تتخلى عن الحنين الصوفي لمكان الطفولة والانتماء الأول. فالهوية عنده لا تُختزل في الدولة أو النظام أو الطائفة أو العرق، بل تُفهم بوصفها سؤالًا مفتوحًا، وتوترًا دائمًا بين الأصيل والوافد، وبين المحلي والعالمي.

كما تتبدّى الهوية العراقية في شعره من خلال استبطان التاريخ الوطني وتفكيك رموزه، لا سيما في تناوله لصورة المدينة العراقية، وتحولاتها، وانكساراتها، حيث تتخذ بغداد، والبصرة، والموصل، حضورًا رمزيًا لا يُعبر فقط عن أمكنة بعينها، بل عن حالات شعورية وثقافية تعكس الواقع الممزق للعراق. ويتجلى ذلك عبر تفكيك البنية السلطوية للهوية الرسمية، وتقديم بدائل ثقافية وشعبية أكثر تمثيلًا للروح العراقية الأصيلة، تلك الروح التي تتجاوز الهويات الفرعية وتتجه نحو رؤية شاملة، عابرة للتمزقات.

في قصائده نلمس اشتباكًا دائمًا مع مفهوم "العراق" بوصفه رمزًا معقدًا للهوية الثقافية، فالعراق ليس وحدة منسجمة، بل فسيفساء من الإثنيات، والأديان، والمذاهب، والطبقات، ولذلك فإن تمثيله الثقافي للهوية العراقية لا يغفل هذا التنوع، بل يشتغل عليه ليعيد إنتاجه في سياق شعري مفتوح على الهامش كما على المركز، على المحكي كما على الفصيح، على الجمالي كما على السياسي. وهنا تتجلى عبقرية سعدي يوسف في بناء لغة شعرية هجينة، تسمح له بأن يُعبّر عن تعقيدات الواقع العراقي دون الوقوع في المباشرة أو الشعاراتية، بل من خلال الاشتغال على التفاصيل، وعلى اليومي، وعلى الشخصي بوصفه مدخلًا إلى الجمعي. (يوسف، 1988)

ويُلاحظ أن تمثيل الهوية العراقية في شعره كثيرًا ما يتخذ بعدًا نقديًا، يتجاوز الحنين إلى تفكيك العوامل التي ساهمت في تهشيم هذه الهوية وتشويهها، سواء كانت هذه العوامل داخلية – كالاستبداد، والطائفية، والفساد – أم خارجية – كالحروب، والاستعمار، والتبعية. فشعره ليس فقط تعبيرًا عن حب الوطن، بل أيضًا عن خيبة الانتماء، وعن فقدان المعنى في وطن لم يعد مأوى للذات، بل عبئًا على الذاكرة والوجدان. وهو إذ ينقّب في خرائب العراق، لا يفعل ذلك من منطلق التدمير أو الإدانة المجانية، بل من أجل إعادة تشكيل هوية ثقافية بديلة، تستند إلى الوعي التاريخي والذاكرة الجمعية، لا إلى الهوية المفروضة أو الرسمية.

كما أن تمثيل الهوية عند سعدي يوسف يظل مفتوحًا على التفاعل مع الهويات الأخرى، فالعراق في شعره لا يُرسم في عزلة عن محيطه العربي والإنساني، بل في تماس دائم مع تجارب شعوب وأمم أخرى، من فيتنام إلى الجزائر، ومن فلسطين إلى كوبا، في سياق كوني يُؤمن بوحدة مصائر الشعوب وحقها في التحرر والكرامة. وهو بذلك ينقل الهوية العراقية من مجال الخصوصية الضيقة إلى أفق العالمية، دون أن يُفقدها نكهتها الفريدة أو جذورها المحلية.

إن الهوية الثقافية العراقية في شعر سعدي يوسف هي عملية مستمرة من التشكّل وإعادة التشكل، من الرفض والاحتضان، من الألم والأمل، وهي ليست شعارًا أو أيديولوجيا، بل تجربة معيشة تُصاغ في لغةٍ متأنية، عميقة، وغالبًا ما تكون ساخرة ومباغتة.

إنها هوية لا تتوقف عند حدود الجغرافيا أو السياسة، بل تنفتح على فضاء رمزي وشعري أوسع، يجعل من العراق فكرةً وشعورًا ومشروعًا ثقافيًا لا يكفّ عن الولادة من الرماد.

الخاتمة:

بعد رحلة بحثية معمقة في تمثيل الهوية الثقافية العراقية في شعر سعدي يوسف، تتبين لنا الأهمية البالغة لهذا النتاج الشعري بوصفه مرآة عاكسة لتاريخ العراق الثقافي والسياسي والاجتماعي، وفضاءً مفتوحًا للتعبير عن الهوية المتعددة والمتحولة والممزقة بفعل المنفى والتاريخ. لم يكن سعدي يوسف شاعرًا للحنين فحسب، بل شاعرًا للمقاومة، والتوثيق، والانتماء النقدي. وقد أظهر شعره قدرة لافتة على تجسيد العراق في تفاصيل الحياة اليومية، وفي الأمكنة الشعبية، وفي الشخصيات الهامشية، وفي الطقوس الثقافية التي تشكل البنية التحتية لهوية تتعرض دومًا للتهديد والانمحاء. لقد قدّم سعدي يوسف خطابًا شعريًا يعيد إنتاج العراق شعريًا وثقافيًا لا بوصفه خريطة سياسية، بل بوصفه ذاكرة جمعية، وحضورًا حسيًا، ومشروعًا ثقافيًا مفتوحًا للتأويل.

أولا: النتائج

1. أظهرت الدراسة أن التمثيل الثقافي للهوية العراقية في شعر سعدي يوسف يقوم على رؤية متعددة الأبعاد، لا تختزل العراق في بُعد واحد، بل تسعى إلى تجسيد تعقيداته الجغرافية والتاريخية والإنسانية.
2. كشفت التحليلات النصية أن الشاعر يوظف آليات شعرية متنوعة لتمثيل الهوية، مثل استحضار الأمكنة العراقية، توظيف الرموز الشعبية، استخدام الشخصيات المهمشة، وتكثيف اليومي في مواجهة السياسي العام.
3. تبين أن المنفى يشكل عنصرًا محوريًا في تشكيل رؤية الشاعر للهوية، حيث يتحول إلى فضاء لإعادة النظر في معنى العراق والانتماء، ويولد توترًا دائمًا بين القرب والبعد، بين الحنين والنقد.
4. دلّت النصوص المدروسة على أن سعدي يوسف لا يعيد إنتاج الهوية العراقية كجوهر ثابت، بل يطرحها كهُوية ديناميكية متغيرة، تنمو داخل التجربة الفردية وتتشكل بفعل الحاضر والماضي، في آن واحد.
5. أظهرت الدراسة أن شعر سعدي يوسف يُعد وثيقة ثقافية تحمل في طياتها أبعادًا سياسية واجتماعية، وتُسهم في الحفاظ على الذاكرة الجمعية العراقية، وتقديم صوت ثقافي مضاد للطمس أو التهميش أو الاختزال الإعلامي والسياسي للهوية العراقية.

ثانيا: التوصيات

1. ضرورة التوسع في دراسة نتاج سعدي يوسف بوصفه جزءًا من مشروع ثقافي عربي يتقاطع فيه الشعر مع الهوية والسلطة والمنفى، بما يعزز فهمنا لدور الأدب في صوغ الوعي الجمعي.
2. تشجيع الباحثين على تناول التمثيلات الثقافية للهويات المهمشة في الشعر العراقي الحديث، وعدم الاقتصار على المركزيات الأدبية والسياسية.
3. إدراج شعر سعدي يوسف ضمن مناهج تحليل الهوية في الأدب ما بعد الاستعماري، للاستفادة من الأدوات النظرية التي تسمح بفهم أعمق لتمثيلات الذات والجماعة.
4. إجراء دراسات مقارنة بين شعر سعدي يوسف وشعراء منفيين من بلدان عربية أخرى، لرصد المشتركات والاختلافات في تمثيل الهوية في سياقات ما بعد النزوح والاقتلاع.
5. العناية بالتوثيق الثقافي للشعر العراقي في المنفى، كونه يمثل ذاكرة مضادة ترفض النسيان، وتُسهم في إعادة كتابة التاريخ الثقافي من وجهة نظر المهمشين والمغتربين.

المصادر

- إحسان عباس .(1959) *فن الشعر* (الطبعة الثانية). بيروت: دار بيروت.
- أنسام محمد راشد .(2002) *البنى الأسلوبية في الشعر العراقي الحديث* (أطروحة دكتوراه غير منشورة). كلية التربية، الجامعة المستنصرية، بغداد.
- امتنان عثمان الصمادي .(2001) *شعر سعدي يوسف: دراسة تحليلية* (الطبعة الأولى). عمّان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- امتنان عثمان الصمادي .(2005) *شعر سعدي يوسف: دراسة تحليلية* (الطبعة الأولى). عمّان: مطبعة الجامعة الأردنية.
- فاطمة المحسن .(2000) *سعدي يوسف: النبرة الخافتة في الشعر العربي الحديث* .بيروت: دار المدى للنشر والتوزيع.
- فيصل هادي عبد الله الدنيناوي .(2011) *تقنيات التشكيل الشعري عند سعدي يوسف* (رسالة ماجستير غير منشورة). كلية التربية، جامعة واسط، قسم اللغة العربية.
- سمير خوراني .(2007) *المرآة والنافذة: دراسة في شعر سعدي يوسف* (الطبعة الأولى). بيروت: دار الفارابي.
- سعدي يوسف .(1988) *مقدمة الأعمال الشعرية (1952–1977)* (الطبعة الثالثة). بيروت: دار العودة.
- سعدي يوسف .(1995) *الأعمال الشعرية، المجلدات 1، 2، 3* (الطبعة الرابعة). بيروت: دار المدى.
- سلمان هادي آل طعمة .(2002) *رواد الشعر الحر في العراق* (الطبعة الأولى). بيروت: دار البلاغة للنشر.
- شاكر النابلسي .(1992) *قامات النخيل: دراسة في شعر سعدي يوسف* (الطبعة الأولى). بيروت: دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع.
- عباس ثابت حمود .(2010) *الشعر العراقي الحديث (1945–1980) في معايير النقد الأكاديمي العربي* (الطبعة الأولى). بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- علي جعفر العلاق .(1997) *الشعر والتلقي: دراسات نقدية* (الطبعة الأولى). عمان: دار الشروق.
- علي داخل فرج .(2005) *البنى السردية في شعر سعدي يوسف* (رسالة ماجستير غير منشورة). الجامعة المستنصرية، بغداد.
- عز الدين إسماعيل .(1981) *الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والموضوعية* (الطبعة الثالثة). بيروت: دار العودة.
- محمد فتوح أحمد .(1977) *الرمز والرمزية في الشعر المعاصر* (الطبعة الأولى). القاهرة: دار المعارف للنشر.
- مجلة القدس العربي .(2012) *مقابلة مع سعدي يوسف* .المغرب، 16 أبريل.
- موقع الحوار المتمدن .(2005) *العدد 1179، 26 نيسان*.
- يوسف الصائغ .*الشعر الحر في العراق* .دون ذكر تاريخ النشر أو دار النشر (يُستكمل من مصدر أصلي عند توفره).